أنيس صايغ عن أنيس صايغ

أنيس صايغ

بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، ٢٠٠٦. ٥٣٤ صفحة.

يتحدث أنيس صايغ عن منهجه في كتابة السيرة فيقول: "إني حريص ألاّ يكون الكتاب مناسبة أو وسيلة لنبش إساءات سابقة [...] والتعريض بأشخاص أو جماعات جرت معهم أو معها صدامات [...] والإنسان الكبير هو الذي يستطيع أن ينظر إلى تلك الوقائع الماضية نظرات منصفة وعادلة منزهة عن الأهواء والضغائن." والحال هذه يرى أنه "كان لا بد من حذف بعض الأسماء عند ذكر بعض الأحداث." هذه القاعدة تبقى قائمة ما لم يؤثر عدم ذكر الأسماء في وصول الرواية ودروسها إلى القارئ، ولذا يستدرك صايغ قائلاً: "تفرض بعض الأحداث على المؤرخ أن يسجل الوقائع ويعلن أسماء أصحاب الأدوار الرئيسية فيها حينما لا يستقيم فهم الحدث بدون تسمية صانعيه" (ص ١٤).

في المنبت: تحدث صايغ في مقدمته عن الحاضنة الاجتماعية لشخصيته والينابيع التي نهل منها أو صبت فيه. ولذا حمل الفصل الأول عنواناً معبراً هو "**في المنبت**" (ص ١٥). ماذا يقصد الكاتب بالعنوان؟ يجيب: "لن أقلد آخرين فأؤرخ 'لشجرة العائلة' "، لأن ما يعتد به هو الأسرة الصغيرة التي تمارس على الشخص المعني تأثيراً فعلياً، والتي هي في حالة أنيس صايغ وبلسانه "ثمانية من 'الصياغ'، الوالدين والأشقاء الستة الذين هم 'المنبت' البشري والحاضن الأسري لشخصي ولشخصيتي" (ص ٢٠).

يعود أنيس صايغ الفلسطيني لأبوين من جدين غير فلسطينيين. فجده لأبيه، يوسف، من حمص في شمال سورية، وقد قادته تجارته ليستقر في قرية خربا من أعمال حوران في جنوب شرق سورية. أمّا جده لأمه فماروني من البترون في شمال غرب لبنان، وقادته تجارته أيضاً ليستقر في بلدة البصة في شمال غرب فلسطين بعد أن صاهر أهلها المسيحيين الكاثوليك. كانت القواسم المشتركة بين الجدين هي: التحول إلى المذهب البروتستانتي؛ مهنة التجارة؛ يسر الحال نسبياً؛ الميل إلى العلم والتدين.

شاءت الأقدار أن يلتقي عبد الله، ابن يوسف صايغ السوري، عفيفة، ابنة جريس البتروني اللبناني، ونصف الفلسطينية لناحية أمها، في قرية خربا (سورية) أواخر سنة ١٩١٤، وأن يتزوجا في النصف الأول من سنة ١٩١٥ (ص ١٧ – ١٩). وشاءت الأقدار أيضاً أن يكون الوالد ضحية نكبة مبكرة، إذ "خسر [...] في خربا أرضه وبيته والمجوهرات التي تركها له والده وهاجرت الأسرة إلى البصة [فلسطين] إبان ثورة ١٩٢٥ السورية خالية الوفاض" (ص ٢١). أمّا بقية الأسرة فهي الأشقاء الخمسة لأنيس: يوسف وفؤاد وفايز وتوفيق ومنير، والشقيقة ماري. وعلى ما تشير المذكرات، فإن يوسف، الشقيق الأكبر، حصل على البكالوريوس سنة ١٩٣٨، أي عندما لم يكن أنيس دخل المدرسة بعد. وفي السنة نفسها أصبح الشقيق فايز عضواً في الحزب السوري القومي ليصير لاحقاً من "كبار قيادييه ومفكريه" (ص ٣٤).

يتحدث صايغ عن الجو العلمي والثقافي في المنزل فيقول: "كان الكتاب زينة البيت وثروته الأساسية [...] اعتدنا أن يكون لكل فرد في الأسرة مكتبته الخاصة به" (ص ٤٣). نجد النظام حاضراً في مختلف أوجه حياة الأسرة الذي يأخذ طابع الإلزام، والذي أتى بنتائج معاكسة أحياناً. هناك "الإلزام في الصلاة [...] الذي حملني على الانقطاع الكامل عنها في السنوات الخمسين الأخيرة" (ص ٣٧). وهنالك الإلزام ـ النظام في الأكل لناحية التقيد بالمواعيد، وصلاة الشكر، وأماكن الجلوس، وآداب المائدة.

أتى الإلزام بنتائج عكسية على صعيد الصلاة، كما طال المدرسة أيضاً، إذ يقول صايغ: "وإذا كانت المدرسة هي الأبشع في ذكرياتي الطبرانية فإن محل أحمد منصور هو الأجمل. كنت ظهر كل يوم أحضر منه إلى البيت صحف النهار ومجلات الأسبوع. كنت مصاباً بنهم المطالعة [...] كنت 'دودة كتب' ومجلات منذ الصغر [...] ولم أكن فريداً في ذلك بين أفراد الأسرة" (ص ٩٢).

يكرر اعترافه قائلاً: "كرهت الدرس كطالب وكرهت التدريس كأستاذ طيلة حياتي [...] وأعترف أيضاً أن أبشع ذكرياتي هي التي تتعلق بالتلمذة والأستذة في المدرسة والكلية والجامعة، وأن معاهد التعلم والتعليم كانت أبشع الأماكن التي اضطررت إلى التردد إليها" (ص ١١١). يدعم أحكامه فيسوق مثلين يعود أولهما إلى حين كان في طبرية، ويرجع ثانيهما إلى تجربته في كمبردج، إذ يصرح معترفاً: "كثيراً ما بعت الصف والمحاضرة والأستاذ بصحن بطاطا مع بيضة مقلية أو قطعة همبرغر" (ص ١١٣).

يستند قوله هذا إلى واقعة فحواها أنه كان على موعد مع أستاذه في منزل الأخير على مسافة نحو ثلاثة كيلومترات من حيث يقيم تلميذ الدكتوراه صايغ، الذي يقول: "وحدث ذات يوم أن بدأت رحلة العذاب سيراً على الأقدام إلى حيث سيجري اللقاء. ومررت أمام مطعم 'كنكو' الشهير بنوع خاص من الهمبرغر يقدَّم مع البطاطا المقلية. ووقفت أفكر: أأواصل السير [...] أم أملأ بطني بذلك الصحن الشهي؟" (ص ١١١). وعلى ما يروي صايغ كان الخيار الثاني هو الذي اعتمده.

هل تستحق الزيارة وصف رحلة العذاب؟ ربما، لأن ذلك الأستاذ ما كان يجب أن يكون أستاذاً لأنيس صايغ، الذي يقول عنه: "كان أستاذاً اسكتلندي الأصل، مختصاً بالتاريخ الإسلامي في القرن الثالث عشر، بينما كانت أطروحتي تتناول الفكر القومي في مصر في القرن التاسع عشر" (ص ١١٢)! بقي أن نشير إلى أن هذا ما حدث في كمبردج. أمّا ما حدث في القدس حيث المدرسة، قبل عقدين، فلا يقل سوءاً، وإن من نوع آخر. يقول صايغ: "كنت في [مدرسة] صهيون تعيساً [...] فالقدس [حيث تقع المدرسة] مدينة قارسة البرد في فصل الشتاء. بينما اعتدت أنا على طقس طبرية الدافئ شتاء" (ص ١٢٣).

لم يكن جميع أساتذة أنيس صايغ مثل أستاذه الاسكتلندي، فـ "نبيه أمين فارس أحب أساتذة التاريخ إليّ" (ص ١١٣). تضم قائمة الأساتذة محل إعجابه قسطنطين زريق، وزين زين، ومحمود زايد، ونقولا زيادة. احتل الأخير مكانة خاصة في نفس صايغ وعقله لأنه "يعرف التاريخ كله، بحقبه وعصوره وعهوده، عن ظهر قلب." يتذكر صايغ أساتذة ظرفاء: الأول لا يخص بالعلامات المرتفعة إلاّ الطالبات الجميلات! والثاني يضع العلامة قبل أن يقرأ أوراق الامتحان! والثالث أستاذ الفلسفة الذي يفشل منذ عشرة أعوام في نيل شهادة الدكتوراه عن كانْتْ (Kant)! أمّا الرابع، فيهوى السهر في مقاهي الزيتونة، حيث كان الطلبة يلحقونه لعل ذلك يحسن وضعهم! (ص ١٤١ – ١٤٢).

بعد ما قاله صايغ الطالب عن المدرسة والمدرسين، كنا ننتظر من صايغ الخريج أن يبتعد عن المدارس والجامعات. لكن ما حدث كان العكس، إذ يقول: "بقيت في أجواء الجامعة ومحيطها بعد التخرج لخمس سنوات [...] أقبل على حضور محاضرات وندوات في التاريخ [...] وكان ذلك نوعاً من الدراسة الحرة، وهي برأيي أفضل أنواع الدراسة الجامعية. فالمرء يحصل على المعرفة [...] وفي الوقت نفسه يتحرر من رهبة الامتحان [...] أكره الامتحانات كل الكره، ولعلني كرهت الدراسة بسبب كرهي للامتحانات التي ترتبط الدراسة بها. والشفهي أبغض أصناف الامتحان" (ص ١٤٤ – ١٤٥).

يروي صايغ أنه بعد تخرجه خاض تجربة التدريس "لأكتشف أني إن كنت أكره الدراسة فأنا أكره التدريس أكثر" (ص ١٤٥). تلك التجربة التي استمرت سنة يسميها "السنة السوداء"، تكررت طوعاً وبلا شكوى أو انقطاع خمسة أعوام دراسية في جامعة كمبردج. وعن

السبب يقول: "تعرفت إلى زميلة أردنية [...] هيلدا جليل شعبان [زوجته لاحقاً] وامتد التعارف إلى صداقة ثم إلى حب ثم إلى قرار بالزواج. لكن قراراً مثل هذا يتطلب انتظاماً رسمياً في عمل ثابت." قُدّم له عرض عمل في كمبردج بواسطة شقيقه توفيق فـ "رضيت فوراً"، على ما يذكر صايغ، الذي يقوّم فترة عمله في كمبردج فيقول: "كانت أجمل ما في حياتي [...] يعود الفضل إذن إلى المدينة وحياتها وطبيعتها وناسها ومناظرها وتقاليدها وفنونها وليس إلى حجرات الدرس" (ص ١٤٦ – ١٤٧).

تراجع صايغ عن موقفه من الدراسة فسجل للحصول على الدكتوراه. نال شهادته قبل أن تنتهي مدة تعاقده مع كمبردج حيث "يمنع نظام التدريس في الدائرة المشرقية تجديد عقد العمل مع الأستاذ الأجنبي أكثر من أربع مرات، بحجة أنه بعد إقامته في بريطانيا خمس سنوات متتالية يحتاج أن يعود إلى وطنه ليجدد ثقافته المحلية." يقوّم صايغ تجربة كمبردج فيقول: "وكان تجديد العقد أربع مرات، دون أن أسعى أنا إلى ذلك، دليلاً على أن إدارة الجامعة لم تكن تعتبرني أستاذاً فاشلاً" (ص ١٥٣).

في الكتابة والتأليف والتحرير: يعرّف صايغ نفسه قائلاً: "ولم أكن إلاّ كاتباً. ولا أحب أو أستحق أن أوصف إلاّ ككاتب" (ص ١٦١). حينما كان لا يزال في الدراسة الثانوية راسل مجلة "الجمهور"، ونشر في مجلة "كل شيء". وكتب خلال دراسته الجامعية في صحيفتي "الحياة" و"صدى لبنان"، ومجلة "الصياد"، و"النهار"، و"الأسبوع العربي" (ص ١٦٥). ومع ذلك فإنه لم يحترف الصحافة، وانتقل إلى عالم التأليف. "لبنان الطائفي" كان كتابه الأول، أمّا الثاني فهو "الأسطول الحربي الأموي في البحر الأبيض المتوسط". كان ذلك فاتحة سلسلة كتب هي: "سوريا في الأدب المصري القديم"؛ "العلاقات السورية المصرية"؛ "جدار العار"؛ "الفكرة العربية في مصر"؛ "تطور المفهوم القومي عند العرب" (ص ١٧١ – ١٧٣).

ترجم كتباً لم تكن وفق ذوقه أو ضمن اختصاصه (ص ١٧٤). وشارك في موسوعتين هما: "الموسوعة العربية الميسرة" و"قاموس الكتاب المقدس". ثم عاد إلى الكتابة التاريخية، فأنجز ما يلي: "الهاشميون وقضية فلسطين"؛ "الهاشميون والثورة العربية الكبرى"؛ "في مفهوم الزعامة السياسية: من فيصل إلى جمال عبد الناصر" (ص ١٧٨). يشير صايغ إلى أنه بعد عودته إلى بيروت في صيف سنة ١٩٦٤ تولى منصب مدير تحرير القاموس الإنكليزي ـ العربي، وكانت مؤسسة فرانكلين تمول المشروع (ص ١٨١). استقال من المنصب في موقف احتجاجي على اعتراض فرانكلين على مضمون ندوة ألقاها في النادي الثقافي العربي (ص ١٨٣). كان ذلك في النصف الأخير من سنة ١٩٦٦ حين تلقى عرضاً للعمل مديراً لمركز الأبحاث التابع لمنظمة التحرير الفلسطينية، وهو ما كان، إذ "استلمت العمل [...] يوم ١٩٦٦/٨/٧" (ص ١٨٦).

أصدر أنيس صايغ أو ترأس تحرير مجلات: "شؤون فلسطينية"؛ "المستقبل العربي"؛ "قضايا عربية"؛ "شؤون عربية". ولا يفوته أن يذكر بالخير من عاونوه على إصدار المجلات الأربع أو تحريرها. امتدت مسؤوليته عن هذه المجلات إحدى عشرة سنة (١٩٧١ – ١٩٨٢)، و"صدر من هذه المجلات الأربع مئةٌ وثلاثة أعداد احتوت على حوالى ألفي بحث ومداخلة" (ص ١٩٣).

في مركز الأبحاث والموسوعة: أتت المذكرات لتسد فراغاً في التأريخ لهاتين التجربتين الثقافيتين. وكما هو معروف، فإن للمركز والموسوعة مكانة خاصة في نفس أنيس صايغ "لأن إشرافي المباشر عليهما وعملي المتفرغ فيهما جعل كلاً منهما يجسّد مفهومي للرسالة الثقافية وأسلوبي في أداء تلك الرسالة بشكل عملي" (ص ٢١٥). وعن تطور المركز يقول: "عندما تسلمت مهام إدارة مركز الأبحاث [...] كان المركز يحتل شقة متوسطة الحجم [...] وحينما غادرت [...] وكان قد انتقل إلى بناية مجاورة في شارع كولومباني شغل ستاً من طبقاتها الواسعة [...] كانت المنشورات قد

تجاوزت الثلاث مئة. وأضيف إليها مجلة شهرية ونشرة رصد [...] أمّا الباحثون فقد ارتفع عددهم من ثلاثة إلى أربعين، وارتفع عدد الإداريين والمحررين من خمسة إلى عشرين. وارتفع جهاز التوثيق من أربعة إلى عشرة" (ص ٢١٥ – ٢١٦).

بعد هذا يسجل صايغ رأياً تقويمياً فيقول: "هذا هو الذي نصّب مركز الأبحاث على عرش الثقافة الفلسطينية المؤسسية في السبعينات من القرن العشرين." ويعيد الفضل لأصحابه فيقول: "أعترف [...] بأني مدين في نجاح المركز [...] إلى ثلاثة: إلى رئيس منظمة التحرير الفلسطينية [أحمد الشقيري] الذي رعى المركز ويسر له الحماية [...] وإلى فايز صايغ الذي [...] أرسى قواعد العمل وفروعه وأسلوبه [...] أدين أخيراً إلى الاحتضان الرائع الذي حظي به المركز من جمهرة المثقفين العرب" (ص ٢١٦).

تسجل المذكرات أن "التوثيق هو الجانب الأهم من مهام المركز." أمّا المكتبة فيه، فقد أصبحت "أكبر مكتبة من نوعها خارج فلسطين" (ص ٢١٧ – ٢١٨). و"أخذ المركز على عاتقه إنتاج مجموعة جديدة من الباحثين الفلسطينيين والعرب المتخصصين بالقضية وفروعها ونواحيها المتعددة القادرين على سد الفراغ الهائل في مكتبة العلم الفلسطيني." ويورد صايغ "قائمة من أسماء الباحثين الذين تعهدهم مركز الأبحاث وفرّغهم ودربهم" (ص ٢٢٣)، فيتضح للقارئ كم استقطب المركز وكم خرّج من أعلام لهم الآن مكانتهم الكبيرة في عالم البحث والتأليف.

نجد في المذكرات أن "الاسم الرسمي للمركز منذ إنشائه [...] هو مركز الأبحاث التابع لمنظمة التحرير الفلسطينية. وبالتالي فإن المركز كان طيلة سني وجوده جهازاً من أجهزة المنظمة" (ص ٢٣١). وبعد أن يسجل صايغ حسن علاقة المركز بالرئيسين أحمد الشقيري ويحيى حمودة على التوالي، يقول: "تبدل الحال جوهرياً بانتقال مقاليد الرئاسة إلى ياسر عرفات ١٩٦٩" (ص ٢٣٣). أسوأ الذكريات هنا هي إعدام الموظف في المركز إدمون دانيال من جانب تنظيمه (ص ٢٣٥)، لسبب واه.

تسجل المذكرات حسن العلاقة والتعاون بين المركز والحكومات العربية. وتميز الرئيسان عبد الناصر وحافظ الأسد على صعيد متابعتهما ومطالباتهما من المركز (ص ٢٣٧). أمّا العلاقة بالمؤسسات الثقافية المشابهة الأُخرى، فقد تراوحت بين تعاون وتنافس رياضي أحياناً وغير رياضي أحياناً أُخرى. وبعد أن ينوه صايغ بالعلاقات بمركز الدراسات التابع لجامعة بغداد ومركز الأهرام للدراسات السياسية والاستراتيجية يقول: "وتطول قصة العلاقات مع أشهر مؤسسات البحث الفلسطينية، أي مؤسسة الدراسات الفلسطينية في بيروت، وتتعدد فصولها" (ص ٢٤٤). وإذا كانت هذه حال العلاقة بـ "الشقيقة" مؤسسة الدراسات، فإن العلاقة بـ "الشقيق"، مركز التخطيط، كانت تنافساً لدوداً!

تعرّض المركز لعدوان من جانب إسرائيل، يعرضه صايغ بالقول: "في أواسط ١٩٧١ [...] وضعت [...] رزمة من أصابع الديناميت فُجّرت في الساعات الأولى من الصباح [...] ولم يؤد الانفجار إلى أكثر من تحطم زجاج النوافذ وخلع الأبواب" (ص ٢٥٣). أمّا الرسالة الثانية فكانت عبارة عن طرد ملغوم انفجر بين يديه ملحقاً به أذى كبيراً وذلك في يوم ١٩٧٢/٧/١٩. وكان الاعتداء الثالث، في ١٩٧٤/١٢/١٤، عبارة عن ثلاثة صواريخ موجهة أطلقت على المركز. وأمّا الإجرام الأخطر فكان في ١٩٨٣/٢/٤، إذ استهدف المركز بسيارة مفخخة أُلحقت به دماراً هائلاً مخلفة عدداً من الشهيدات والشهداء وعدداً أكبر من الجرحى (ص ٢٥٨).

الموسوعة الفلسطينية: كان مشروع الموسوعة هو الهدف الأول وموضوع لقاء أنيس صايغ وأحمد الشقيري الذي انتهى بتكليفه مسؤولية مركز الأبحاث الفلسطيني (ص ٢٥٩). كان ثمة فكرة أن ينفذ مشروع الموسوعة من خلال المركز، لكن الإمكانات المالية حالت دون ذلك. ووضع المشروع على الرف حتى حرّكته أوضاع ملائمة توالت لتستقر على إنشاء "هيئة الموسوعة الفلسطينية" في

إطار المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (الألكسو). ثم توالت أوضاع فرضت وصول صايغ في أوائل سنة ١٩٨٨ إلى رئاسة مجلس إدارة الموسوعة (ص ٢٦١).

على ما تشير المذكرات "لم يبدأ العمل الفعلي إلاّ حوالي ١٩٨٠ بعد أن تأمن الغطاء المالي للمشروع [...] حينما أعلن (الأمير) فهد بن عبد العزيز (الملك فهد فيما بعد) استعداده لتغطية نفقات مشاريع الموسوعة بحدود خمسة ملايين دولار" (ص ٢٦٣). لا ينسى صاحب المذكرات الذين عاونوه من مستشارين وباحثين ومراجعين ومدققين وإداريين. فيذكر بالتقدير المرحومين أحمد المرعشلي، رئيس مجلس الإدارة الأول، والدكتور محيي الدين صابر، المدير العام للألكسو في حينه، وأحمد بهاء الدين، الذي كان له الفضل في لفت نظر الأمير فهد، في حينه، إلى حاجة الموسوعة إلى التمويل.

لا ريب أن القسم الذي يحمل عنوان "**في العلاقات مع السيد ياسر عرفات**" هو أخطر أقسام المذكرات وأكثرها حساسية، وذلك نظراً إلى خطورة القضية التي يتناولها وحساسيتها. يبدأ صايغ الفصل المذكور بتحفظين يؤكدان "أن الحديث [...] ينحصر في نطاق العلاقات بين الرجل [ياسر عرفات] وبيني في ثلث قرن من الزمان، بسلبيات هذه العلاقات وإيجابياتها" (ص ٢٨٩). فهم البعض هذا القول على أنه شخصنة لما حدث بين الرجلين، وأنه لا يهم أحداً سواهما!

لم يكن الأمر شخصياً، وإنما كان ترميزاً للعلاقة بين السلطة السياسية التي كان يمثلها الراحل ياسر عرفات، وبين السلطة الثقافية التي كان يمثلها بامتياز، ولأسباب موضوعية أيضاً، أنيس صايغ. كان الأول رئيس اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير، التي يتبع لها مركز الأبحاث، في حين كان صايغ يرئس أهم مشروعين ثقافيين فلسطينيين تابعين لمنظمة التحرير الفلسطينية، أي مركز الأبحاث والموسوعة الفلسطينية. لا ينتقص هذا من قيمة مؤسسة الدراسات الفلسطينية التي كانت وما زالت مستقلة/غير تابعة مالياً أو إدارياً أو سياسياً لمنظمة التحرير الفلسطينية أو لسواها، على ما تعلن المؤسسة رسمياً وعملياً.

لا يبدو طرح أنيس صايغ بعيداً عن المفهوم السابق لأسباب الخلاف الذي نشب مع المرحوم ياسر عرفات، إذ يقول: "هذه العلاقة ما كان يمكن أن تكون غير ما كانت عليه فعلاً ما دام عرفات هو ما هو عليه وأنا ما أنا عليه، في العقلية والنظرة إلى الثقافة والنشاط الثقافي وحرية الكاتب وصدق الكلمة والانضباط والتضحية والسلوك السياسي والفردي والعلاقة بين المثقف والسلطات. أي أنه كان على أحدنا أن 'يبدل جلده' ويقلب مقاييسه ومُثُله وأساليبه رأساً على عقب" (ص ٢٩١).

إن السؤال الذي يفرض نفسه هو: هل كان عرفات فريداً في موقفه، أم كان نموذجاً مكرراً على هذا الصعيد من جانب كل ذي سلطة في هذا الشرق المملوء بالتسلط والاستبداد؟ ويمضي السؤال السابق صوب أسئلة مكملة هي: هل كان صايغ الضحية الوحيدة لقمع الثقافة والمثقفين؟ وإذا كان هذا هو حال المؤسسة الرسمية الفلسطينية، سياسة وسلطة وثقافة، فماذا عن حال المعارضة، سياسة وسلطة وثقافة؟ وإذا كان هذا هو حال الفلسطينيين فماذا عن حال العرب؟ وإذا كان هذا هو حال الحكومات فماذا عن حال المعارضة والأحزاب وأزمتها المديدة التي لا تقل عن أزمة السلطة؟

يستدعي ما تقدم استدراكاً في اتجاهين: أولهما أن تعميم ظاهرة التسلط، ومدها من السلطة إلى المعارضة، ومن ياسر عرفات إلى مناوئيه، لا يشكلان بأي حال من الأحوال تخفيفاً لمسؤولية عرفات. وثانيهما أن الحديث عن ضحايا آخرين نتيجة قمع القيادة الفلسطينية لا يسحب من صايغ الضحية فرادته على هذا الصعيد. لا نقصد بالكلام السابق أنه كان الأكثر تضرراً من أذى العدو والصديق فحسب، بل لسبب آخر أيضاً، وهو أنه تجرأ على اتخاذ موقف مما تعرض له من ظلم، وتحمّل مسؤولية ذلك، كما كان لديه الشجاعة لإعلان الموقف

وإشهار ما حدث معه.

"**لم أبق في الحزب. لكن بعض الحزب بقي فيّ.**" هذا هو العنوان الفرعي الذي يلخص القسم السابع "**في الحزب**". و"الحزب في مصطلحات العائلة [الصايغية] هو الحزب السوري القومي [...] وقد انفرد الحزب المذكور بهذا الاستئثار" (ص ٣٣٧). والسبب مزدوج: "فمن الجهة الأولى انضم أكثر من نصف أفراد العائلة إلى الحزب واستلموا فيه مراكز قيادية متفاوتة [...] ومن الجهة الأُخرى لم ينخرط أي من أفراد الأسرة [الأشقاء] في يوم من الأيام في أي حزب سياسي آخر" (ص ٣٣٦).

وعلى ما تشير المذكرات، "انضم [الشقيق الأكبر] يوسف إلى الحزب في العام ١٩٣٦ [...] ترقى يوسف في المراتب الحزبية حتى عُيّن مفوضاً عاماً للحزب في [...] فلسطين [...] إلى أن وقع في أسر القوات الصهيونية في أيار/مايو ١٩٤٨. ولكن يوسف انقطع عن تحمل أي مسؤولية حزبية بعد أن أطلق سراحه ربيع ١٩٤٩ [وذلك بسبب] الحملة التي شنها مسؤولون في الحزب ضد فايز إثر خلافه مع [أنطون] سعادة وانسحابه من الحزب وإعلان سعادة طرده، في خريف ١٩٤٧" (ص ٣٣٨ – ٣٣٩).

يشير الدكتور أنيس إلى أن "فايز هو 'الصايغ' الذي ترك البصمات الأقوى في تاريخ الحزب [...] عميداً للإذاعة وللثقافة، ورئيساً لتحرير جريدة الحزب ومجلته الثقافية الشهرية، و'ناموساً لمجلس العمد' [...] كما كان، عملياً، ناطقاً باسم الحزب وموفد القيادة إلى معظم المؤتمرات والاجتماعات واللجان السياسية المحلية والدولية في ما بين ١٩٤٢ و١٩٤٧. وكان خطيب الحزب بلا منازع" (ص ٣٢٩). لقد ساهمت عدة عوامل ذاتية وموضوعية في نشوء خلاف بين فايز وسعادة أفضى إلى انسحاب الأول وإعلان الثاني طرده من الحزب في خريف سنة ١٩٤٧.

ويتابع صايغ في المذكرات قوله: "حفلت منشورات الحزب ونشراته وأدبياته بكم هائل من التهجم والتشويه والتشويش والاتهامات ـ وهو أسلوب اعتادت عليه الأحزاب العربية في مناسبات مثل هذه للطعن بالشخص المغضوب عليه ولتملّق الزعامة والتقرب منها" (ص ٣٤١). وبهذا يعكس لنا صايغ جزءاً من مناخ عدم التسامح السائد حتى في الأحزاب الداعية إلى النهضة، وهو ما يعيدنا إلى الاستبداد الذي ذكرنا آنفاً أنه سمة عربية وشرقية عامة أكثر مما هو ظاهرة خاصة أو محدودة.

على عكس موقف يوسف الذي غادر الحزب جرّاء ما جرى مع فايز، فإن موقف أنيس كان الاقتراب. ويفسر موقفه هذا قائلاً: "أردت أن أتخذ خياراتي وقناعاتي السياسية والقومية الرئيسية بنفسي، بدون فرض أو إملاء [...] ربما أردت أن أثبت لنفسي وللآخرين أني أصبحت ناضجاً نضجاً كافياً فأقر لنفسي القرارات التي اعتاد الناس أن يتركوا للآخرين مجال التحكم أو التأثير بها" (ص ٣٤٩).

لا تخلو علاقة صايغ بالحزب القومي من طرائف شتى، منها واقعة إدخاله الحزب. فقد طلب من شقيقه يوسف أن يأخذ له ولشقيقه منير صورة بالكاميرا التي كان الأول اقتناها حديثاً، فاشترط أن يكون ذلك في مقابل دخولهما الحزب. "وأخذنا يوسف إلى سطح المنزل، وطلب من كل منا أن يرفع اليد اليمنى إلى أعلى بشكل معين ونقول: تحيا سورية. وعند ذلك أخذ لنا الصورة." ويستنتج قائلاً: "وهكذا أكون أحد أقدم أعضاء الحزب، وأصغرهم سناً، دون أن أعي شيئاً حول الموضوع" (ص ٣٤٣).

هذه الطرفة لا تلغي أن علاقة أنيس صايغ بالحزب القومي كانت جدية تماماً. هنا، يستعيد أجواء نكبة ١٩٤٨ وطبيعة المجابهة، هل هي قومية عربية أم سورية قومية. وصل الأمر إلى حد الإعلان بلسان سعادة وقلمه أن "العروبة أفلست" (ص ٣٥٤). ويستعيد أيضاً اغتيال الحزب القومي لعدنان المالكي "الحدث الذي كان القشة التي قصمت ظهر البعير." واجه صايغ بعد وفاة سعادة وتولي جورج عبد المسيح ما لم يستطع هضمه، فيقول: "بالي بدأ ينشغل حينما أخذ عبد المسيح يبعث إلينا بتعليماته وقراراته [...] ممنوع على الرفيق أن يحضر فيلماً سينمائياً أو حفلاً

غنائياً أو أن يدخن سيجارة أيام الجمعة، فإن إعدام سعادة صباح يوم جمعة يجعل من ذلك النهار يوم حداد دائم للحزب" (ص ٣٦٠).

تفحص صايغ الأمور ملياً ليكتشف أن جورج عبد المسيح "كان [...] رجلاً رائعاً يحمل فكراً جامداً، وقائداً ممتازاً لتيار طفولي، أراد وأدار حزباً متوقفاً في عالم متحرك" (ص ٣٥٩). وعلى ما تحقق، شمل العالم المتحرك فيما شمل أيضاً حركة القومية العربية الصاعدة من جهة، وتنامي دور مصر القيادي في الكفاح من أجل الحرية والتحرر والتقدم ومعاداة الاستعمار وإسرائيل من جهة أُخرى.

كان صايغ جزءاً من الحركة التي أشار إليها. لقد شهد تحولاً فكرياً عميقاً مكنه من إنجاز عدد من الدراسات، يقول عنها: "عبّرتُ عن 'تحولي' الفكري واعتناقي العقيدة القومية العربية في خمسة من الكتب ظهرت تباعاً بين ١٩٥٨ و١٩٦٦" (ص ٣٦٤). ويختم حديثه عن الحزب بالقول: "إن الحزب يبقى فيّ حتى وإن لم أبق أنا في الحزب. تبقى فيّ علمانيته وتقدميته ونظاميته ووفاؤه للأمة ونضاله من أجل فلسطين." ثم يستدرك قائلاً: "لم تعد تحديداتي لمفهوم الأمة والقومية تتطابق مع المفهوم الحزبي، وإن كانت حدود الوطن لا تتطابق في قناعاتي كما هي في مبادئ الحزب" (ص ٣٦٩).

حمل القسم الثامن عنوان "**في المدن وحكاياتها**". هذا القسم هو الأكبر، ويدور حول المدن التي زارها المؤلف، حيث "أقمت وزرت وتجولت في المئات من المدن في العشرات من الدول" (ص ٣٧١). لقد حكى حكايته مع كل مدينة زارها، كما حكت له كل مدينة حكايتها مع التاريخ والجغرافيا فحكاها لنا. لن نعرض لهذا الفصل الممتع، راجين القارئ ألاّ يحرم نفسه متعة قراءته.

ختم صايغ كتابه بفصل تاسع هو "**في التقاعد**" والذي اختصره بأمثولة "من مقولة 'مت قاعداً' إلى تعاقد مع الحياة للموت واقفاً" (ص ٤٧١). وكان قراره أن "أتقاعد دون أن أتقاعس" (ص ٤٧٤). جرف اتفاق أوسلو قرار التقاعد؛ فـ "في ١٣ أيلول/سبتمبر [١٩٩٣] عدت إلى الساحة [...] خضت المعركة مع اتفاق الذل والاستسلام على ثلاث جبهات: عقد الندوات واللقاءات الصحافية والإعلامية، وتأليف كتاب (١٣ أيلول)، والدعوة إلى عقد المؤتمر الوطني الفلسطيني لحماية الميثاق الوطني الفلسطيني الذي انعقد فعلاً في أواخر ١٩٩٨ في دمشق" (ص ٤٧٧ – ٤٧٨).

يعرض صايغ ما قام به تحت العناوين المتعددة، ولعل أهمها هو "اللقاء الثقافي الفلسطيني" كمنبر ثقافي أسبوعي، والذي عقد حتى تاريخ إعداد الكتاب "حوالي ثلاث مئة وخمسين جلسة، حاضر فيها حوالي مئتين وسبعين محاضراً" (ص ٤٨٧). ويعدد جملة أعماله التي تؤكد أنه كان على نشاط يسحب عنه صفة المتقاعد. قدم صايغ في كتابه شهادة فريدة وغير مسبوقة في قسوتها وإثارتها للحزن في التأريخ لعمل المعارضة الفلسطينية التي كانت تريد مواجهة أوسلو.

يستطيع القارئ أن يجد ما يريده من مقتطفات عن هذه النقطة على الصفحات ٤٨٠ – ٤٨٢. أمّا إشارتنا إلى هذا النقد من جانب صايغ للمعارضة الفلسطينية فللرد على القراء الانتقائيين للمذكرات، الذين إمّا هم من المعارضة فلم يروا إلاّ نقده للموالاة، ورأسها ياسر عرفات، وإمّا أنهم من الموالاة فلم يقرأوا إلاّ نقده لسلوك بعض رؤوس اللجنة القيادية لجبهة معارضي أوسلو، فقد "فاجأنا عضو في اللجنة، أمين عام تنظيم رئيسي بلقاء رئيس 'دولة إسرائيل'"، كما أن "رئيس اللجنة، يعقد لقاء مع التلفزيون 'الإسرائيلي' يغازل فيه سياسة عرفات" (ص ٤٨٢)!

.. وبعد ذلك نسأل لماذا أزمة العمل الفلسطيني بنيوية وشاملة ومديدة؟ رحم الله الشهداء.

حسين أبو النمل
باحث فلسطيني
مقيم بلبنان